لزوجة

عيناها مغروستان في عينيّ بوله شديد. أتأمل سوادهما العميق الذي أستعذبه فينقلب إلى لون رمادي طيني كلون النيل الكامن أمامنا حينما تنتقل عيناي بينهما. يخيل إليّ أحيانا أنها ابنة النيل الموهوبة له. أتكون بالفعل عروسا من عرائسه؟ لابد؛ فمثلها لا أعتقد أن لها وجودا في عالمنا. تتماس يدانا بنعومة فتنطلق رعدة شديدة تشمل جسدينا. أتأمل الكون المحيط. الكورنيش على امتداد البصر مكتظ بالعشاق. يخيل لي أن النيل يشاركنا عشقنا فيسير متمهلا. أتوه في عوالمها فلا أدر كم من الوقت مرّ. أفيق فجأة على صوت أجش قاس يقول لي آمرا:

– تعال كلّم الباشا.

أنتفض منزعجا على صوته. ألتفت لأرى اثنين ضخام الجثة يحيطان بي بينما سيارة الشرطة قابعة خلفي تماما.ألمح حول مقودها أحد الضباط يجلس شامخا. أحاول محادثته، الاستفسار عن السبب إلا أنه يأخذ بطاقتي ليأمرني أنا وحبيبتي بالركوب في الخلف. أحاول أن أشرح له أننا في وضح النهار ولم نفعل أي فعل فاضح يخدش الحياء إلا أنه كان يبدو وكأنه أصم تماما. أيأس متسائلا:

– ولم نحن؟

ولكني حينما أتأمل الكورنيش أدرك أننا قد نسينا الوقت تماما

فصار الكورنيش خاليا إلا منا. ولكن هل هذا داعيا كي يحتجزنا؟ لم أدر بنفسي إلا ونحن في مكتبه. مرّ عليّ الوقت وكأنني في عالم آخر منفصل تماما عما يدور حولي. تأخذني دوامات من الهواجس فأغيب عن الوعي. أراه يجلس أمامنا بكبرياء قائلا بعد وضع قدمه في وجهينا:

- اسمك إيه يا عم الحبّيب؟

بهدوء:

- أعتقد أنه أمامك في بطاقتي.

ينقلب وجهه صارخا:

- بتقول إيه يا روح أمك؟

ولم أدر إلا ببرق عجيب لامع في عينيّ. تنطلق مني آهة عالية فإذا بالمخبر الواقف خلفي يقطعها بلكمة قوية في فمي. أرى دمائي تسيل غزيرة من أنفي. أسمع صوتها يأتيني من خلف حجب الضباب التي تلفني، كان منتحبا صارخا. أسمعها ترجو الضابط أن يأمرهم كي يتركوني. أراها من بين اللكمات تميل على كفه تقبّلها. تنتابني حالة شديدة من الغضب. كيف تهين نفسها ؟ أزعق:

- لا تفعلي ذلك مع هذا الحيوان.

ما أن نطقت بالجملة إلا وأشار إليهم برأسه. لم أكن أعرف معنى الإشارة ولكني فوجئت بهم يقيدونني منهالين عليّ بالعصي الغليظة. أراه ينظر إليّ بشموخ متشفيا بينما هي تحاول مستميتة تخليصي من بين أيديهم. أراه يجذبها نحوه بقوة. أصرخ من بين آلامي:

– دعها يا ابن الكلب.

ينظر نحوي بصرامة. علامات الحقد والغل تبدو على وجهه فيقع قلبي في قدمي. تنطلق منه ضحكة عالية بها الكثير من الجنون. يتركها كي يجلس خلف مكتبه. يشير بيده فيتوقف الضرب. أشعر بنوع غريب من الألم حينما يتوقفون عن تعذيبي، وكأني كنت قد استعذبت الأمر. يشير إليها بالجلوس فتفعل على مضض. أراها ترتعد منتحبة بينما تسحب أنفاسها على شكل شهقات متقطعة. يقول بوقاحة:

– كنتوا بتعملوا إيه يا بت؟

تنطلق الدماء في عروقي فائرة. أقول بوهن:

– أنت لم تأت بنا من إحدى الشقق المشبوهة، لا تردي على هذا المتهتك.

– ينظر تجاهي بعينين قانيتين. يبتسم بسمة لزجة. يخرج من خلف مكتبه ليقف خلف مقعدها. أراه يتشمم شعرها فأكاد أن أنفجر غضبا. يتحسس كتفيها المرتعدين، تهبط يده قليلا متحسسة ظهرها بينما أراها تكاد أن تموت رعبا. حينما يحاول فك سوستة فستانها الخلفية تصرخ لتنشب أظافرها في وجهه فيسل منه الدم. تبتعد منبهرة بالمفاجأة. أسبه بألفاظ لم أتصور أن أقولها من قبل. أراه يزيل الدم المنسال على وجهه ليقول بهدوء:

– سأريك الآن رواية لم ترها في حياتك مكافئة لك ولرجولتك التي أراها فيك.

يشير بيده فإذا برجاله يجذبونها. يمزقون ملابسها فأتمزق معها.

يجردونها فأتجرد من روحي. يعبثون بجسدها فأرى كياني وكأنه انتثر إلى أشلاء. يتعرى أحدهم لينغرس فيها. أراهـــا تقـــاومهم، تـــركلهم، تستخدم أظافرها، أسنانها، تزعق من أعماقها كي يغيثها أحد. تطالبني بعمل شيء من أجلها. أشعر بالعجز يقتلني مفتتا إياي. تتأمل عيناي دم بكارتها المستباح فيتلوّن العالم من حولي بلون أحمر قان. يتجرد آخر من ملابسه لينغرس في مؤخرتها. أراها وقد صارت بينهما كالشاطر والمشطور. يتبادلونها فيما بينهم بينما تخور مقاومتها تماما. أراها وقد صارت جثة هامدة. يقول أحدهم:

– إيه البرود دا؟ دي عاملة زي لوح الثلج.

يرد رئيسهم بهدوء:

– أومال هو لزمته إيه يا بقر؟

يهجمون عليّ. يجردونني ليعيدون الكرة معي.أشعر بمـــؤخرتي تتمزق حينما يدخلني أحدهم. أموت خزيا بينما الغضب المعتمل داخلي يكاد أن يفجرني. أنظر إليها عاجزا. عيناها كألف خنجـــر يمزقنـــي. يأمرني أحدهم:

– قول أنا مرة.

أرفض ملتزما الصمت. يحاولون إعادة الكرة معها؛ فأصـــرخ من أعماقي لأجيبهم بما يريدونه. أقولها قوية تهز الكون من حولي:

– لاااااا... لا تفعلوا... أنا مرة.

يتركونها، فيأمرهم الضابط المنتشي وكأنه كان يشاهد فيلما مـــن أفلام البورنو الساخنة بالقاءنا في الحجز. حجرة ضيقة ليس بها شيء.

أعجز عن النظر إليها. أشعر بمهانة قاتلة. أقول:

– حبيبتي.

تنظر إليّ بعينين فقدتا الحياة. لا أدري ماذا أقول لها. أحاول البحث عن كلمة لها معنى لكني لا أجد. تتأملني طويلا. أشعر في نظرتها تقزز واستهانة وألم. تنطلق فجأة في ضحكة مجلجلة بائسة. سرعان ما تتشنج باكية. أحاول الاقتراب. تصرخ فجأة:

– لا تقترب.

تقول بعد فترة طويلة:

– لم نعد كما كنا.. لم نعد نصلح لبعضنا البعض، لقد متّ.

أشعر بوخز شديد في مؤخرتي المهترئة. غضب شديد يجتاحني ليشملني. أرغب في تحطيم كل ما حولي، قتل أي إنسان. أبحث عن شيء أفرغ فيه غضبي فلا أجد. ألتفت إليها. مكومة على بعضها في وضع الجنين. أسرع بإبعاد عينيّ عنها، لا أستطيع احتمال رؤية عريها. أناديها هامسا. ترد وكأنها في عالم آخر:

– لا تفعل مرة ثانية.. لا أستطيع سماع صوتك يناديني.

أصرخ بقوة. تقع عيناي على قطعة بناء معدنية جوار الحائط أتناولها غارسا إياها في بطني، صدري، لتستقر في القلب تماما.